الربيع العربي والتأليف المعماري

يتنامى داخلي الشعور بالسعادة كلما وجدت كتاباً عربياً في العمارة ..ويزداد سروري إذا وجدت من خلال الكتاب رأياً عربياً يحتوى على قيمة فكرية أو يثير جدلاً إيجابياً.-ذلك أن حركة التأليف العالمية في العمارة لا تحمل غير القليل من الكتابات الناطقة باللغة العربية اللهم إلا ترجمات ميسرة لقاريء غير متخصص.

و مع كامل إقتناعي بضرورة إصدار هذه الترجمات من باب نشر الثقافة المعمارية بين الأوساط المعمارية المختلفة إلا أنني أرى ضرورة أن نتجاوز مرحلة "الترجمة" إلى مرحلة "التأليف" أي أنه قد أصبح من المناسب أن نفكر – كمهتمين بمجال العمارة- بشأن التأليف العربي فيكون لنا إضافة في صناعة الفكر المعماري العالمي على أن تعكس الحالة العربية الراهنة .والحالة العربية قد شهدت إنتفاضات شعبية نجحت بعضها في إسقاط نظم بأكملها واستطاعت تهديد نظم أخرى ..ومن جهة أخرى فقد أظهرت وعياً جماهيرياً لم يكن متوقعاً ومن ثم أصبح من الأمور الحتمية إستغلال هذه الحالة في إشعال حركة التأليف المعماري العربي.

وقد نجد تساؤلين يلحان على الأذهان عن حركة التأليف المعماري في العالم العربي :لماذا ليس لدينا مخزون من الأدب المعماري سواءاً كان موروثاً أو مستحدثاً ؟والإجابة على هذا التساؤل يدفعنا إلى النظر في حركة التأليف والتنظير الغربي المعماري . فقد واكبت حركة التنظير حركة البناء وكان لها منظرين وممارسين في آن واحد وهو ماخلق هنالك موروثا بُنيت عليه ماتلاه من كتابات فنجد فيتروفيوس (صاحب الكتب العشرة في العمارة) فيماقبل الميلاد يشير إلى العمارة الإغريقية في كتاباته ويعلق عليها ثم يضيف ويقتفي أثره كل من ألبرتي وبلاديو اللذان يضيفان بدورهما على كتاباته وكتابات معاصريه ويأتي ليوناردوا دافنشي معقباً عليهما وعلى فيتروفيوس (من خلال الرجل الفيتروفي Vitrovian Man وعلاقته بالنسب الكلاسيكية) وهو ما أثرى الحركة على إختلاف الوجهات والمدارس .إن الموروث الفكري الغربي يتسم بالتراكمية وهى قيمة مهمة إذ أن الإتصال بالماضي يدعم الحاضر ويؤثر على المستقبل ومن ثم جاء الثراء المعماري متناغماً مع ثراء فكري ..مبنياً عليه. وبالمقارنة بالحالة العربية نجد أن ثمة فجوة حدثت بين حاضرنا وماضينا فنرى إغفالاً – متعمداً أو غير متعمد- للموروث الفكري ويمكن ملاحظة ذلك بسهولة من خلال مطالعة بعض الكتب العربية التي تكاد تخلو غالباً من الهوامش أو حتى من الأشارة إلى ماقد سبق من مؤلفات في نفس المضمون فيما يعد نسفاً للتراكم الفكري وعدم إحترام لقيمة الموروث.

وفي ظل الحالة الثورية التي أفرزت كما أسلفنا وعياً جماهيرياً أرى أن الظرف العربي الراهن يتطلب الإلتفات إلى بعض الإشكاليات ونأمل أن نجد لها من خلال التأليف العربي في العمارة حلولاً غير مسبوقة ورؤىً مستقبلية ومن هذه الإشكاليات

- إلى أي مدى تستطيع العمارة أن تقدم حلولاً متنوعة وواقعية لمشكلة مثل العشوائيات و مشكلة ساكني المقابر؟
- كيف للعمارة أن تتوائم مناخيا داخل بلدان العالم العربي فتحقق الراحة للمستخدمين داخل المباني صيفا وشتاءاً من دون إهدار للطاقة؟
- هل من معايير يمكن الإستعانة بها للوقوف على مدى نجاح عملية التصميم المعماري وبحيث يسهل على جمهور المستخدمين الإستفادة منها أيضا ؟
- كيف يمكن التعبير عن العمارة التاريخية أو الإقليمية بدون اللجوء إلى عملية القص واللصق cut and paste وكيف يتفق ذلك مع روح العصر الذي نعيشه و احتياجات المستخدم؟
- هل يتناول التأليف المعماري عملية التكامل بين الدراسات النظرية و الدراسة التطبيقية للعمارة في سبيل تطوير العملية المهنية والحصول على منتج معماري جيد ؟

ومماسبق نجد أنه من البديهي أن نزرع في أمتنا بذرة المكتبة العربية في العمارة لتقوم بدورها في تثقيف وتأهيل أجيال من المعماريين الأكاديميين والمهنيين ..ولايمكن لنا أن ننكر مؤلفات بعض أساتذتنا في إثراء المكتبة العربية ودورهم في نقل النتاج الفكري الغربي بأسلوبهم إلا أن الثقافة المعمارية العربية لاتزال تقف موقف التابع لا المتبوع أو المترجم لا واضع النص .

ولعل السؤال المناسب حالياً يكمن في كيفية تحويل الفكرة من دعوة داخل إطار من التمنيات إلى منهجية تتحدد على أساسها رؤى إيجابية قد تنقل الفكرة إلى مدخل حيز التنفيذ.ويمكن أن تنقسم المنهجية إلى عدة نقاط ؛ تتناول كل منها اليات تنفيذ الفكرة.وهي كما يلي: ..

- تدشين المراكز البحثية المختصة بالكتابة والنشر المعماري .على تتألف هذه المراكز من الأكاديميين والمهتمين بالبحث العلمي في مجالات العمارة وغيرها.
- تفعيل دور مراكز الدراسات المعمارية القائمة .والإستعانة بها في تنظيم حملات موجهة لنشر الثقافة المعمارية بين مختلف الأوساط المهنية والأكاديمية.ويمكن لهذه المراكز إعداد مايلزم من دراسات وإحصائيات لتحديد القضايا الموجودة على الساحة المعمارية التي تهم المتخصصين وغيرهم.ليتم طرحها فيما بعد ومناقشتها من خلال مؤلفات وإصدارات .
- الإستفادة بتجربة بعض المنظمات العالمية المهتمة بالتراث والثقافة (مثل الأغاخان واليونسكو) .وإسقاط تجاربها في مجالي التأليف والنشر على الحالة المعمارية في العالم العربي .ومحاولة الحصول على دعم هذه المنظمات أدبياً ومادياً.
- تشكيل لجان علمية من المعماريين لمراجعة الكتابات العلمية (رسائل الماجستير أو الدكتوراة أو الأوراق البحثية المنشورة) وتحديد صلاحيتها للنشر العام .ثم طرح موضوعاتها في قالب منهجي مناسب للقاريء.كما يتصل بعمل هذه اللجان التأكيد على ظوابط الكتابة والترجمة العلمية في الإعتراف بالمصادر و عدم إغفال أية جهود سابقة بما يعني إحترام الموروث الثقافي.
- تنظيم المؤتمرات عن حركة التأليف والكتابة المعمارية. وفيها يمكن الخروج بقضايا جديدة للمناقشة كما الخروج بتوصيات تحمل اليات مبتكرة وإستراتيجيات واقعية.
- التأكيد على دور العملية التعليمية داخل كليات العمارة وأقسامها في توعية الأجيال بأهمية الكتابة المعمارية .وحثها على الإهتمام بالثقافة المعمارية لتتحول العملية التعليمية من التلقي أحادي الجانب إلى منظومة معلوماتية تقوم على البحث والتثقيف .

إن الحالة العربية الراهنة و ما تدخره من قيم ومعان وموروثات تحتم علينا أن ندرك أن الأفكار تقود الأفعال. ولن نسترد مكانتنا في العمارة بغير الأفكار المبدعة بنات العقول الراشدة والمنطقيات السديدة النابعة من وجدان هذه الحالة التي نشهدها .وقد يقول قائل أن تناول هذا الأمر غير ذي بال وإنه من الأجدر صرف الأنظار تجاه المستجدات الجارية من أحوال سياسية وثقافية وإجتماعية وهو قول يفتقد الحكمة والقبول ..ذلك أن تلك الظروف – على الأقل من وجهة نظري – تحتم على كل متخصص أن يدلي برأيه طالما أن ذلك يصب في الصالح العام..وقد تدفع بعض هذه الأفكار –فيما بعد – الأمور نحو هدف منشود طالما تاقت له القلوب والعقول لذلك فإنني أدعو جميع المهتمين إلى بذل الجهد مدفوعين برياح التغيير التي تهب على بلداننا العربية.. وأعتقد أنه

قد آن أن نصنع لأنفسنا ربيعاً عربياً في التأليف المعماري .. وفي هذا المضمار لا أجد ختاماً خير من كلام شاعرنا السوري المعاصر أدونيس- عندما تحدث عن الأفكار الخلاقة نافيا عنها الجمود..ومؤكداً فيها على روح الإبداع والتجديد إذ يقول: "أن الأفكار الخلاقة ليست بيوتاً..إنها حقولٌ وأشجار"...

بقلم :مجيب الرحمن عامر (معماري وكاتب)